برنامج الدَّرس الواحد الخامس
الدَّرس (٢)، ١٣/ جمادىٰ الأولىٰ/ ١٤٢٧

تطْرِيزُ

الشيخ صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

حفظه الله تعالى

علىٰ

سر الاستغفار عقب الصلوات

العلَّامة محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي البغداديُّ

(١٢٨٣-١٣٣٢)

رَحِمَهُ اللهُ تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريع

بالتنسيق مع موقع: http://www.j-eman.com

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الحمْدُ لله رَبِّنا، وأشْهَدُ أن لَا إلـهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شَريكَ لَه، وأَشهَدُ أنَّ محمَّدًا عَبدُه وَرَسُولُه.

أمَّا بَعْدُ.. فهٰذا هُو الدَّرسُ **الثَّاني** مِن بَرنامَجِ (الدَّرسِ الواحِدِ) **الخامس**، والكِتَابُ المقْرُوءُ فيهِ هوَ: (**سر الاستغفار عقب الصلوات**) للعلّامة محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

وقَبلَ الشُّروعِ في إقرائِه لا بُدَّ مِن ذِكرِ مُقدِّمتَينِ اثنَتَينِ:

المُقدِّمةُ الأولَىٰ: التَّعريفُ بالمصنِّفِ، وتَنتَظِمُ في ثلاثةِ مَقاصِدَ:

المقصَدُ الأوَّلُ: جَرُّ نَسَبِه، هُو العلَّامةُ الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي، والقاسمي نسبة إلى جدِّه، قاسم الحلَّاق.

المقصَدُ الثَّاني: تاريخُ مَولِدِه، وُلِد يوم الإثنين الثَّامن من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين بعد المائتين والألف (١٢٨٣).

المقصَدُ الثَّالثُ: تاريخُ وفاتِه، تُوُفِّيَ مساء السَّبت الثَّالث والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين بعد الثلاثمائة والألف (١٣٣٢)، وله من العمر تسعٌ وأربعون (٤٩) سنة رَحِمَهُ اللهُ رحمةً واسعة.

المقدِّمةُ الثَّانيةُ: التَّعريفُ بالمصنَّفِ، وتَنتَظِمُ في ثَلاثةِ مَقاصِدَ:

المقصَدُ الأوَّلُ: تَحقيقُ عُنوانِه، طُبع هٰذا الكتاب بالاعتماد على نسخةٍ خطيَّةٍ كتبها المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ، والذي يظهر أن هٰذا هو العنوان المذكور فيها، ولم يُشر ناشِر الكتاب إلى خلاف ذلك.

المقصَدُ الثَّاني: بَيانُ مَوضُوعِه، موضوعُ هٰذا الكتاب هو إثباتُ الاستغفار في أدبار الصَّلوات المكتوبات، وبيان غاية الشَّريعة من ترتيبه في هٰذا المحل.

المقصَدُ الثَّالِثُ: تَوضِيحُ مَنهَجِه، جمع رَحِمَهُ اللهُ تعالى في هٰذا الكتاب على وجازته بين الجادَّتين العظيمتين الرِّواية والدِّراية:

فشطره الأوَّل: مشتملٌ على ذكر الأحاديث المرويَّة في هٰذا المحلِّ المتعلقة بالاستغفار عقب الصَّلوات.

وشطره الثَّاني: مشتملٌ على بيان الحكمة الشَّرعية من ترتيب الاستغفار بعد الصَّلوات المكتوبات.

وأصل هٰذه الرِّسالة ردٌّ لمقولة قائلٍ زعَمَ عدمَ جواز الاستغفار بعد الصَّلاة..

قال المصنِّفُ العلامة جمال الدين القاسميّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد الله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمّد وآله أجمعين.

أما بعد، فهٰذه رسالة في (سر الاستغفار عقب الصلوات) حداني إلى جمعها أن بعض الطلبة نقل عن بعض الفقهاء أنه قال: لا يجوز للمصلِّي أن يقول بعد الفراغ من الصلاة: «أستغفر الله» لأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾ [النساء: ١٧] انتهى.

فقلت: أطبق المحدِّثون على رواية الاستغفار بعد الصلاة عن النبي ﷺ، واتفق الأئمة على ندب ذلك بلا نكير. ولا مساغَ لرد الأحاديث الواردة في ذلك عن معناها انتصارًا للرأي؛ لدلالتها القطعية على ما أرشدت إليه، دلالةً يفهمها العربي والعجمي، والبليغ والغبي؛ لظهورها نصا، ومجيئها على شرط الصحيح. والأعجب من هٰذا استدلاله بالآية على عدم الجواز مع أن الذي أُنزلت عليه ﷺ هو الذي سنَّ الاستغفار بعد الصلوات قولا وفعلا.

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في ما مضى؛ هٰذه الدعوة التي ذكرها بعض الطلبة عن بعض الفقهاء، من قوله: بأنَّه (لا يجوز للمصلِّي أن يقول بعد الفراغ من الصلاة: «أستغفر الله»)، وعلل ذلك بـ(أن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ [النساء]) ، وتوهّم هٰذا أنَّ الصلاة عملٌ فاضل، والآية دالة على اختصاص التوبة بالعمل السَّيِّئ، وقد رد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى قوله هٰذا بشيئين اثنين:

أحدهما: إطباق المحدّثين (على رواية الاستغفار بعد الصلاة عن النبي ﷺ).

والثاني: اتِّفاق أئمة الفقهاء (على ندب ذلك بلا نكير).

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى أنه (لا مساغَ لرد الأحاديث الواردة في ذلك عن معناها انتصارًا للرأي)، فإنه إذا صحَّ الأثر بطل النظر، والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ في هٰذا الباب قطعية في هٰذا المراد، لظهور نصها وصحة أسانيدها، وهٰذه الدعوة التي إدّعاها المدعي ظاهرة البطلان، فإن الذي أنزلت عليه هٰذه الآية هو الذي كان يستغفر -صلوات الله وسلامه عليه- في أدبار الصلوات كما سيأتي في كلام المصنف بذكر الأحاديث الواردة في ذلك.

***

وهاك بيان الأحاديث التي رواها أئمة السنن في صحاحهم وسننهم و مسانيدهم:

قال الإمام مسلم في «صحيحه» في باب (استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته): حدثنا دواد بن رُشيْد قال: حدثنا الوليد، عن الأوزاعي، عن أبي عمار - اسمه شداد بن عبد الله - عن أبي أسماء عن ثوبان قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا. وقال: «اللّٰهمَّ أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام».

قال الوليد: فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار ؟

قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله.

وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن زاذان، قال: حدثني رجل من الأنصار، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في دُبر الصلاة: «اللّٰهمَّ اغفر لي، وتب علي، إنك أنت التواب الغفور - مائة مرة».

وروى عبد الرزاق عن معاذ بن جبل: من قال بعد كل صلاة: أستغفر الله الذي لا إلٰه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه - ثلاث مرات؛ كفّر الله عنه ذنوبه، وإن كان فرارا من الزَّحف.

وروى ابن السني وابن النجار عن معاذ مرفوعا: «من قال بعد الفجر ثلاث مرات، وبعد العصر ثلاث مرات: أستغفر الله الذي لا إلٰه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، كُفرّت عنه ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر».

وروى الديلمي عن أبي هريرة مرفوعا: «من استغفر الله ﷻ سبعين مرة في دبر كل صلاة؛ غُفر له ما اكتسب من الذنوب».

وروى الخطيب مرفوعا «أي عبدٍ صلى فريضة ثم استغفر الله عشر مرات؛ لم يقم من مقامه حتى يُغفر له ذنوبه».

والأحاديث والآثار في هٰذا الباب كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية للمنْصف.

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ تعالى في ما سلف الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ المشتملة على مشروعيّة استغفار الله ﷻ بعد الصَّلاة، وأصحُّ المروي في هٰذا الباب هو الحديث الذي صدّر به المصنف مُخَرَّجا من «صحيح مسلم» وهو حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا. وقال: «اللّٰهمَّ أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»)، فإن هٰذا الحديث نص في هٰذه المسألة لقول الصحابي (كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا)، والمراد بالإنصراف في هٰذه المحل: التسليم من الصلاة، فإنَّ الإنصراف من الصلاة الوارد في الأحاديث يشمل معنيين اثنين:

أحدهما: السَّلام من الصَّلاة.

والثاني: الخروج من المسجد.

والمراد هنا المحلّ الأول، فكان النبي ﷺ إذا سلَّم من صلاته استغفر ثلاثا، ولم يأتِ بيان لفظ الاستغفار في هٰذا المحل في حديث صحيح عن النبي ﷺ، ولهٰذا سأل الوليدُ بن مسلم الدمشقي أبا عمر الأوزاعي: (كيف الاستغفار؟ فقال: تقول: أستغفر الله ، أستغفر الله.)

والإتيان بهٰذا اللفظ جائز بلا خلاف، فإذا قال العبد: أستغفر الله، كان مستغفرًا، ولو جاء العبد بغير ذلك من الألفاظ المشتملة على الاستغفار كان فعله صحيحًا.

وأثبَتُ ألفاظ الاستغفار عن النبي ﷺ قوله: «اللّٰهمَّ اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور» كما صح ذلك عنه ﷺ في ما رواه الترمذي وغيره من حديث ابن عمر، فإذا شاء المصلي، جاء بالاستغفار على هٰذه الصفة (استغفر الله)، أو جاء به على الصفة الأخرى الثابتة عن النبي ﷺ بأن يقول: «اللّٰهمَّ اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور»، ولو جاء بغيرهما كان ذلك جائزا إلا أن الأَوْلَى اختيار واحدةٍ مما تقدَّم.

أما الأحاديث المروية في هٰذا الباب مما ذكره المصنف عقب ذلك، فلا يصحُّ منها شيء:

والحديث الأول الذي عزاه إلى ابن أبي شيبة ثم قال: (بإسناد صحيح)، وشاركه المعلق على هٰذا الرسالة في دعوى الصحة ليس بصحيح، فإن هٰذه اللفظة مُعلَّة، ولا يصح قوله: (يقول في دبر الصلاة)، والمحفوظ في روايات هٰذا الحديث كما ثبت عند النسائي في «السنن الكبرى»: أن النبي ﷺ فعل هٰذا بعد صلاة الضحى، فقوله: (يقول في دبر الصلاة) يُوهِمُ أنها المكتوبة، والصحيح كما جاء التصريح به عند النسائي في «السنن الكبرى» أنها صلاة الضُّحى، فهٰذا الذكر مشروع عقب صلاة الضحى، لا عقب الصَّلوات المكتوبات، وقد اختلف أهل العلم – رحمهم الله تعالى – في الإتيان بالاستغفار أيختص بالصلاة المكتوبة أم يعم كل صلاة من صلوات النوافل؟

وأصح القولين: أن الاستغفار مختص بالصلوات المكتوبات، فيشرع للإنسان أن يستغفر ثلاثا عقب الصَّلوات المكتوبات، هٰذا هو الذي جاء به التصريح في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، **أما النوافل فلم يثبت منها شيءٌ إلا هٰذا الحديث المخرّجِ عند ابن أبي شيبة؛ وفيه الاستغفار بهٰذا اللفظ مائة مرة بعد صلاة الضحى**، وما عدا ذلك من النوافل فلم يثبت الاستغفار عَقبه؛ بل لم يثبت عقب النوافل شيءٌ من الأذكار إلا هٰذا الذكر عقب صلاة الضحى؛ وإلا قوله: «سبوح قدوس ربّ الملائكة والروح» في دبر الوتر، وما عدا ذلك من النوافل لم يثبت فيه شيء معين.

وبقية الأحاديث بعده المعزوّة إلى «مصنف عبد الرزاق» و«عمل اليوم والليلة» لابن السُّني، و«ذيل تاريخ بغداد» لابن النجّار، و«مسند الفردوس» للديلمي و«تاريخ بغداد» للخطيب = كلها أحاديث ضعيفة لا تثبت عن النبي ﷺ.

***

ولا يخفى على الخبير، أن من سبر كثيرا من جزئيّات الطاعات، يرى أن الحق ﷻ شرع التوبة والاستغفار في خواتيم أعمالها، فشرعها في خاتمة الحج، وقيام الليل، وأمر تعالى رسوله بالاستغفار عقب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة، والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجا؛ فكان التبليغ عبادة قد أكملها وأداها فشرع له الاستغفار عَقِيبَها.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩]

كثيرا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت في «صحيح مسلم»: أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثا.

وقال ابن القيم في كتابه «طريق الهجرتين» في بحث ترتيب عبادة الصالحين حين دخول وقت الصلاة ما نصه: (فإذا جاء وقت الفرض بادر إليه مكملا له، ناصحا فيه لمعبوده، كنصح المحب الصادق المحبة لمحبوبه الذي قد طلب من أن يعمل له شيئا ما؛ فهو لا يبقى مجهودا، بل يبذل مقدوره كله في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله، ليقع موقعا من محبوبه، فينال به رضاه عنه وقربه منه.

أفلا يستحي العبد من ربه ومولاه ومعبوده أن لا يكون عمله هكذا!

وهو يرى المحبين في إشغال محبوبهم من الخلق كيف يجتهدون في إيقاعها على أحسن وجه وأكمله، بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبه من الخلق، فلا أقل من أن يكون مع ربه بهذه المنزلة. ومن أنصف نفسه وعرف أعماله؛ استحى من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه لربه، وهو يعلم من نفسه أنه لو عمل لمحبوب له من الناس لبذل فيه نصحه ولم يدع من حسنه شيئا إلا فعله.

وبالجملة: فهذا حال هذا العبد مع ربه في جميع أعماله، فهو يعلم أنه لا يوفي هذا المقام حقه؛ فهو أبدا سيتغفر الله عَقِيب كل عمل.

وكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا.

وقال تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات]، فأخبر عن استغفارهم عَقِيب صلاة الليل. قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون ربهم.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة]، فأمر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة.

وشرع للمتوضئ أن يقول بعد وضوئه: «اللَّهمَّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهِّرين».

فهذه توبة بعد الوضوء، وتوبة بعد الحج، وتوبة بعد الصلاة، وتوبة بعد قيام الليل، فصحاب هذا المقام مضطر الى التوبة والاستغفار كما تبين، فهو لا يزال مستغفرا تائبا، وكلما كثرت طاعاته كثرت توبته

واستغفاره). انتهى.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا ما شرعه الله ﷻ لعباده من التوبة والاستغفار لخواتيم أعمالهم، ومقدم ذلك ما أُمر به النبي ﷺ في سورة النصر، لما منّ الله ﷻ عليه بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، أمر النبي ﷺ بأن يستغفر ربه ﷻ فقيل له: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر: ٣] ثم أُمرت الأمة جمعاء في مقامات كثيرة بأن تستغفر ربها عند الفراغ من الأعمال الصالحة، فأمِر العبد بعد الفراغ من الصلاة أن يقتدي بالنبي ﷺ بالاستغفار ثلاثا، وأمرت الناس عقِب فراغهم من الحج بأن يستغفروا الله - ﷻ كما قال تعالى:﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٩] ، وأمر العبد كذلك بأن يستغفر ربه ﷻ أمرا مستحبا إذا فرغ من صلاة الليل كما قال الله ﷻ في حق أهل الليل ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات]، ووصفهم سبحانه بذلك فقال: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧] قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى قاموا الليل فلما انتهو إلى السحر استغفروا ربهم ﷻ، ذلك أنهم لما طال قيامهم لله ﷻ خافوا أن لا تقبل منهم هٰذه الأعمال أو أن يقصروا فيها ففزعوا إلى استغفار الله ﷻ.

وذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أيضا من هٰذه المقامات ما يُشرع للمتوضئ أن يقول بعد وضوئه «اللّٰهمَّ أجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» ونقل ذلك من كلام ابن القيم في «طريق الهجرتين»، وهٰذا الحديث مخرج عند الترمذي وإسناده صحيح إلا أن هٰذه الزيادة شاذة، فلا تثبت عن النبي ﷺ وأصل الحديث في «صحيح مسلم» ليس فيه ذكر هٰذه الزيادة ، وإنما فيه ذكر الشهادتين، فالمحفوظ ذكر الشهادتين وأما زيادة «اللّٰهمَّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» فإنها لا تصح، ويصح في ذلك الحديث الآخر المخرج عند النسائي في «السنن الكبرى» من حديث أبي سعيد الخدري (أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من وضوئه قال: «سبحانك اللّٰهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك») فإن هٰذا الحديث صحيح وقد روي موقوفا ومرفوعا والصحيح وقفه، إلا أن مثله لا يقال من قبل الرأي، والصحيح أنه من الأذكار التي يأتي بها العبد بعد فراغه من وضوئه.

والمقصود أن تعلم أن الشريعة رتبت الاستغفار والتوبة الى الله ﷻ في عدة مقامات من الطاعات كما ذكر المصنف تصديق ذلك من كلام أبي الفداء ابن كثير في «تفسيره» وصاحبه أبي عبد الله ابن القيم في «طريق الهجرتين»، **وهٰذه التوبة التي وردت في هٰذه المقامات ليست توبة من مقارفة الرذائل باتفاق أهل العلم**، ولكنها توبة من ترك تكميل الفضائل، **فإن التوبة التي أمر بها العبد نوعان اثنان:**

النوع الأول: التوبة من مقارفة الرذائل.

والنوع الثاني: التوبة من ترك تكميل الفضائل.

وقد ذكر هٰذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة «التوبة» وتلميذه ابن القيم في «مدارج السالكين» وتلميذه أبو الفرج ابن رجب في «تفسير سورة النصر»، فحينئذ يكون العبد في هٰذه المقامات تائبا إلى الله ﷻ من تركه تكميله للفضائل، فإن العبد لا يزال في أثناء هٰذا العمل ربما لحقه فتور أو نقص أو قصر في شيء من أحكام ذلك العمل، فيتوب إلى الله ﷻ من عدم تكميله لفضائله.

***

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى أيضا بعد ذلك بكراريس: (فإن قيل: فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة، وشدة خوف النبي ﷺ مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأنه أقرب الخلق إلى الله ؟ !

قيل: عن هٰذا أربعة أجوبة:

الجواب الأول: أن هٰذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده، وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد، لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره، ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره. ونظير هٰذا في المشاهد: أن الماثل بين يدي أحد الملوك المشاهد له أشد خوفا منه من البعيد عنه؛ بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه، وأنه يطالب من حقوق الخدمة وأدائها بما لا يطالب به غيره، فهو أحق بالخوف من البعيد.

ومن تصور هٰذا حق تصوره فهم قوله ﷺ: «إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

وفهم قوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره، من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم».

وليس المراد به لو عذبهم تصرف في ملكه، والمتصرف في ملكه غير ظالم كما يظنه كثير من الناس؛ فإن هٰذا لا يتضمن مدحا والحديث إنما سيق للمدح وبيان عِظم حق الله على عباده، وأنه لو عذبهم لعذبهم بحقه عليهم ولم يكن بغير استحقاق، فإن حقه ﷻ عليهم أضعاف ما أتوا؛ ولهٰذا قال بعد: (ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم)، يعني: أن رحمته لهم ليست على قدر أعمالهم؛ إذ أعمالهم لا تستقل باقتضاء الرحمة، وحقوق عبوديته وشكره التي يستحقها عليهم لم يقوموا بها؛ فلو عذبهم والحالة هٰذه لكان تعذيبا لحقه وهو غير ظالم لهم فيه، ولا سيما فإن أعمالهم لا توازي القليل من نعمه عليهم، فتبقى نعمه الكثيرة لا مقابل لها من شكرهم، فإذا عذبهم على ترك شكرهم وأداء حقه الذي ينبغي له سبحانه عذبهم ولم يكن ظالما لهم.

فإن قيل: فهم إذا فعلوا مقدورهم من شكره وعبوديته لم يكن ما عداه مما ينبغي له مقدورا لهم، فكيف يحسن العذاب عليه ؟.

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن المقدور للعبد لا يأتي به كُله، بل لا بد من فتور وإعراض وغفلة وتوانٍ.

وأيضا ففي نفس قيامه بالعبودية لا يوفيها حقها الواجب لها، من كمال المراقبة والإجلال والتعظيم والنصيحة التامة لله فيها، بحيث يبذل مقدور كله في تحسينها وتكميلها ظاهرا وباطنا، فالتقصير لازم في

حال الترك وفي حال الفعل.

ولهٰذا سأل الصدِّيقُ النبي ﷺ دعاء يدعو به في صلاته، قال له: قل: «اللّٰهمَّ إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»، فأخبر عن ظلمه لنفسه، مؤكدا له (بأن) المقتضية ثبوت الخبر وتحقيقه، ثم أكده بالمصدر النافي للتجوز والاستعارة، ثم وصفه بالكثرة المقتضية لتعدده وتكثره، ثم قال: «فاغفر لي مغفرة من عندك» أي: لا ينالها عملي و لا سعي؛ بل عملي يقتصر عنها، وإنما هي من فضلك وإحسانك لا بكسبي و لا باستغفاري وتوبتي. ثم قال: «وارحمني» أي: ليس معول إلا على مجرد رحمتك، فإن رحمتني وإلا فالهلاك لازم لي.

فليتدبر اللبيب هٰذا الدعاء وما فيه من المعارف والعبودية، وفي ضمنه أنه لو عذبتني لعدلت فيّ ولم تظلمني، وإني لا أنجو إلا برحمتك ومغفرتك، ومن هٰذا قوله ﷺ: «لن ينجي أحدا منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: «و لا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

فإذا كان عمل العبد لا يستقل بالنجاة، فلو لم ينجه الله لم يكن قد بخسه شيئا من حقه و لا ظلمه؛ فإنه ليس معه ما يقتضي نجاته، وعمله ليس وافيا بشكر القليل من نعمه. فهل يكون ظلما له لو عذبه. وهل تكون رحمته له جزاء لعمله، ويكون عمله ثمنا لها، مع تقصيره فيه وعدم توفيه ما ينبغي له من بذل النصيحة فيه، وكمال العبودية من الحياء والمراقبة والمحبة والخشوع وحضور القلب بين يدي الله في العمل له ؟ ومن علم هٰذا علم السر في كون إعمال الطاعات تختم بالاستغفار.

ثم ساق نحو ما تقدم له، وقال بعد: (فهٰذا ونحوه مما يبين حقيقة الأمر وأن كل أحد محتاج إلى مغفرة ربه ورحمته، وأنه لا سبيل إلى النجاة بدون مغفرته ورحمته أصلا).

ومن أراد تمام الأجوبة فعليه بالكتاب المذكور، ضاعف الله لمؤلفه الأجور.

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى هنا استطرادًا متعلِّقًا ببيان السر في ختم الطاعات بالاستغفار، نقله من كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «طريق الهجرتين»، إذ أورد ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى قول القائل: (وما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب وشدة خوف النبي ﷺ مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وأنه أقرب الخلق إلى الله؟!)، فبيّن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى مأخذ الخوف عند نبي الله ﷺ والملائكة المقرّبين بأجوبة عدة، اقتصر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى على جواب واحد منها، وهو أنّ الخوف من الربِّ إنّما يكون على قدر المعرفة، ومعرفة القريب لله أعظم من معرفة غيره.

فلما كان نبينا ﷺ من ربه بمنزلة عظيمة، ومعرفة كبيرة، وكانت الملائكة المقرَّبين كذلك صار خوفهم أعظم من خوف غيرهم، فهم يخافون بمزيد معرفتهم بربهم ﷻ، إذ قصَّروا في عدم القيام بحقه.

وقد أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى من كلام ابن القيم أيضا إشكالًا آخر، وفيه: (فإن قيل: فهم إذا فعلوا

مقدورهم من شكره وعبوديته لم يكن ما عداه مما ينبغي له مقدورا لهم، فكيف يحسن العذاب عليه ؟) يعني: أن الأمر والنهي معلق بالقدرة والاستطاعة، فإذا جاء العبد بما يقدر عليه من شكر الله وعبوديته لم يكن حينئذ ملومًا على تقصيره في عدم الإتيان بما لا يقدر عليه، وأجاب ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالى عن ذلك (من وجهين:

أحدهما: أن المقدور للعبد لا يأتِي به كُلَّه، بل لا بد من فتور وإعراض وغفلة وتوان)، فهو يقصِّر في إتيانه بما يقدر عليه.

والوجه الثاني: أن نفسَ قيام العبد بالعبودية لا يكون مكملا للحق الواجب لها من كمال المراقبة والإجلال والتعظيم لله عَزَّ وَجَلَّ، بل يلحقه نقص في ذلك، (فالتقصير اللازم للعبد في حال الترك وفي حال الفعل.)

ثم ذكر ما يصدّق هٰذا من دعاء الصدِّيق المشهور قل: «اللّٰهمَّ إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا... » إلخ، وقد أفرده شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالى بشرح نفيس، ذكر ما تضمَّنه هٰذا الدعاء من العبودية التي ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ تعالى من كلام ابن القيم طرفا منها، وفيها: تقرير حاجة العبد واضطراره إلى رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا كان محتاجا إليها لا مخرج له عنها وهي مُعوَّلُه في الفوز فحينئذ كان العبد مأمورًا بدوام استغفار الله عَزَّ وَجَلَّ، في أعقاب الطاعات ليشمله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته.

و(تمام الأجوبة) كما ذكر المصنف في الكتاب المذكور.

***

وقال الأستاذ الإمام مفتي مصر حرس المولى وجوده في تفسيره قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة] تاب بالمثناة كثاب بالمثلثة، ومعناه: رجع. ويقال: تاب العبد إلى ربه، أي: رجع إليه؛ لأنَّ اقتراف الذنب إعراض عن الله، أي: عن طريق دينه وموجبات رضوانه.

ويقال: تاب الله على العبد؛ لأن التوبة من الله تتضمن معنى الرحمة والعطف، كأن الرحمة الإلهية تنحرف عن المذنب باقترافه أسباب العقوبة، فإذا تاب عادت إليه وعطف ربُّهُ عليه.

والتوبة تختلف باختلاف درجات الناس، فعبدك يتوب إليك من ترك ما أمرته بفعله أو فعل ما أمرته بتركه. وصديقك يتوب إليك ويعتذر؛ إذا هو قصّر في عمل لك فيه فائدة عما في إمكانه واستطاعته، وولدك يتوب إذا قصر في أدب من الآداب التي ترشده إليها؛ ليكون في نفسه عزيزا كريما.

وكذلك تختلف توبات التائبين إلى الله تعالى باختلاف درجاتهم في معرفته وفهم أسرار شريعته.

فعامة المؤمنين لا يعرفون من موجبات سخط الله تعالى وأسباب عقوبته إلا المعاصي التي شددت الشريعة في النهي عنها، وإذا تابوا من عمل سيىء فإنما يتوبون منها.

وخواصُّ المؤمنين يعرفون أن لكل عمل سيىءٍ لوثة في النفس تبعد بها عن الكمال، ولكل عمل صالح أثرًا فيها يقربها من الله وصفاته، فالتقصير في الصَّالحات يُعدُّ هؤلاء من الذنوب التي تهبط بالنفس وتبعدها عن الله تعالى؛ فهي إذا قصرت فيها تتوب، وإذا شمرت لا تأمن النقائص والعيوب، ويختلف اتهام هؤلاء الأبرار لأنفسهم باختلاف معرفتهم بصفات النفس وما يَعْرِض لها من الآفات في سيرها، ومعرفتهم بكمال الله جلَّ جلاله ومعنى القرب منه واستحقاق رضوانه؛ ولذلك قال بعض العارفين: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

ومن هنا تكل معنى التوبة التي طلبها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والتسليم. ا.هـ

ختم المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تعالى هٰذه الرسالة الوجيزة بنقل نفيس عن مفتي مصر في زمانه محمد عبده – غفر الله له وسامحه – وله كلام حسن في التَّفسير مع زلّاتٍ عظيمة في عدة أبواب من أبواب الدين، وقد اشتملت هٰذه الجملة المنقولة من كلامه رَحِمَهُ اللهُ على مسألتين عظيمتين:

أولاهما: بيان حقيقة التوبة.

والثانية: بيان مراتب التوبة.

فأمَّا المسألة الأولى وهي: بيان حقيقة التَّوبة؛ فإنه ذكر أن حقيقة التوبة هي: رجوع العبد إلى ربه ﷻ، لأنَّ أصل التَّوب: الرُّجوع ، وإذا تاب العبد إلى ربه فإنه يكون راجعًا إليه.

أما المسألة الثانية وهي: مراتب التوبة؛ فذكر كلاما منثورًا، حاصله ما تقدَّم تقريره؛ أن التوبة نوعان:

أولهما: التوبة من فعل السيئات، وهي مقارفة الرذائل.

والثاني: التوبة من التقصير في الطاعات، وهي التوبة بترك تكميل الفضائل.

والناس متفاوتون في إدراكهم لهاتين المرتبتين، فعامة المؤمنين لا يعرفون من معاني التوبة إلا التوبة من المعاصي، وأما خواص المؤمنين فهم يعلمون أنهم إذا قصّروا في الصَّالحات وفرَّطوا في الطاعات فإن ذلك نقصٌ يوجب المسارعة إلى التوبة، ولهٰذا قال بعض من قال من أهل الفضل والإحسان: (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، يعني أن الأعمال التي يعملها عباد الله الأبرار هي بالنسبة إلى مقامِ من فوقهم من المقرَّبين هي سيئات في حقهم، فإن المقربين قد يفعلون حسناتٍ ثم يعرفون أن هٰذه الحسنات قد لحقهم فيها نقص، ولا يدرك الأبرار هٰذا المعنى فحينئذ تكون حسنات الأبرار بمنزلة السيئات لأولئك لكمال حالهم.

وهٰذا آخر التقرير على هٰذه الرسالة والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.